أدّوا الحقّ الذي عليكم

ظاهرة لعلها من أبرز الظواهر التي تميّز هذا الدين العظيم، تلك التي يلخّصها لنا حديث رسول الله ﷺ الذي يرويه الشيخان عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه .. قال: قال رواه الله ﷺ: « إنها ستكون بعدي أَثَرة وأمور تنكرونها ! ». قالوا: يا رسول الله ! كيف تأمر من أدرك منا ذلك ؟ قال: تؤدّون الحقّ الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم !!

وهو حديث يوجز في هذه الكلمات البليغة، دستوراً ينبغي أن يسير عليه المسلم في حياته كلها: أن يؤدي الحق الذي عليه – أعني الواجبات – وأن يسأل الله الحق الذي له !

هذا المنهج العملي الذي نجده بارزاً في كل ناحية من نواحي الإسلام .. عجيبٌ أن يغفل عنه الكثيرون، وأن يبقى في نظر الأكثرين موضوعاً لا لزوم للكلام عليه .. إما لأنه أمر بديهي لا داعي للحديث عنه، وإما لأنه أقل من أن يُبحث فيه. ولعل للمفكر الإسلامي الكبير الأستاذ مالك بن نبي، الفضل في توجيه الأنظار إلى هذا المفهوم الأصيل باعتباره الركن الأول في بنيان الحضارة. والذي نرجو أن نُوفّق إليه في هذا الحديث الوجيز، أن نستعين ببعض الأمثلة والأوامر والتكاليف في الكتاب والسنّة لنكشف عمّا نقول.

الأمر الأول الذي نرجو أن لا يغيب عن أذهاننا: أن مصطلح الإسلام في حدّ ذاته، يتضمّن هذه القاعدة الأصيلة. فالإسلام يتضمّن الطاعة، والطاعة تنفيذ والتنفيذ أداء .. أداء للواجب أو بالأحرى أداء المسلم للحقّ الذي عليه ! وذلك ما توضحه لنا بتفصيل آية المائدة: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم: سمعنا وأطعنا !﴾ [المائدة: 7].

هذا التفاعل النفسي المزدوج: السمع والطاعة، يتضمّن عملية منفعلة وهي السمع، وعملية فاعلة وهي الطاعة .. وما ذلك في واقع الأمر إلا قيام بالواجب كأكمل ما يكون!

ولقد فهم الرعيل الأول هذا الأمر على حقيقته، فاستطاعوا بذلك أن يبنوا مجتمعهم ذلك العظيم في فترة من الزمان لا يكاد يصدّقها العقل وكانوا بذلك المصداق الحيّ لما قال الله في الإنجيل تحدّثاً عنهم:

﴿كزرع .. أخرج شطأه ..
فآزره ..
فاستغلظ .. فاستوى على سوقه ..
يعجب الزرّاع!﴾ [الفتح: 29].

فالشَّطء الذي يخرجه هذا الزرع المبارك، أعني تلك الأغصان الصغار التي تتفرّع عنه، وهي رمزٌ في كلام الله لأفراد المجتمع المسلم وأبنائه .. هذا الشطء يؤازره .. يؤازر الزرع الذي أخرجه، فهو ليس عالة عليه، ولا طفيلياً يعيش على خيراته، ويطالب بحقوقه، ولكنه كائن إيجابي بنّاء، يقوم بواجباته، ويشد أزر المجتمع الذي أنبته، فيكون بذلك خيرُ الجميع، ويتاح لهذا المجتمع المثالي أن يستغلظ ويشتد ويستوي على سوقه .. وهكذا كان، فإذا المجتمع الإسلامي العظيم يتنامى في هيهات من عمر الزمان لا يكاد يتصورها فكر الإنسان، وإذا به يتسامى ويسمو في سنين معدودات .. يعجب الزرّاع!

ولو أننا أخذنا نستقصي هذا الناظم النفسي الذي ينظّم تفاعلات المجتمع الإسلامي كلها .. في كتاب الله وفي سنّة رسوله، لعجبنا كيف نغفل عن هذا الفيض الغابر، الذي يطبع بسمته كل عمل وكل تصرُّف من تصرفات الفرد المسلم أو المجتمع المسلم ..

الفرد المسلم أو المجتمع المسلم أقول ..

ذلك أن الإسلام يخاطب كلاً منهما بنداء الواجب بدل أن يسمح لكلٍ منهما أن يستجيب إلى نداء الحقوق!

وقد يدهشنا أن نرى المدى الرحب والمجال الفسيح الذي تتواتر فيه هذه التعاليم ..

مثال أول ... زاوية من زوايا المجتمع تتناول بنيان الأسرة ..

فالإسلام يعتبر حقاً من حقوق الفرد أن يُتاح له الزواج، ليروي هذه الفطرة القوية التي أودعها الله فيه، إرواءً سليماً نظيفاً منتجاً ..

هذه حقيقة لا مراء فيها .. ولكن كيف يتحدّث الإسلام عن ذلك؟

إنه لا يتوجّه بالخطاب إلى الفرد المسلم فيقول له: إن لك حقاً على المجتمع أن ييسّر لك الزواج .. ولا إلى المجتمع المسلم فيقول له: إن لك حقاً على أفرادك أن يستقيموا مادام لم يُتح لهم الزواج ..

طريقة التوجيه على النقيض من ذلك تماماً ..

فالخطاب للمجتمع المسلم يأتي في صورة توجيه له إلى أن من واجباته تزويج أفراده غير المتزوجين!

والخطاب للفرد المسلم يأتي في صورة توجيه له إلى أن من واجباته أن يستعفّ فيحمي المجتمع من السوء .. طالما لم يُتح له الزواج ..

ولنسمع إلى ذلك في سورة النور (32 – 33):

الخطاب للمجتمع:

﴿وأنكحوا الأيامى منكم، والصالحين من عبادكم وإمائكم .. إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله، والله واسعٌ عليم﴾.

والخطاب للفرد:

﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله﴾.

﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ..

﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن ..﴾

ومثال آخر:

الإسلام يعتبر حقاً للولد على أبويه أن يؤمنّا له حياته وتربيته ومعاشه، وهو يعتبر حقاً للوالدين على الولد أن يبرّهما ويطيعهما ويستغفر لهما. ولكنه لا يوجِّه الخطاب للولد: أن هذا حقك على أبويك، أو للوالدين أن هذا حقكما على ابنكما، ولكن الخطاب يأتي لكلٍ منهما في صورة توجيه له إلى واجب:

﴿ووصينا الإنسان بوالديه﴾ [لقمان: 14]، [العنكبوت: 8]، [الأحقاف: 15].

﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ [النساء: 11].

والتفاصيل كلها على هذا المنوال:

﴿والوالدات يرضعن أولادهنّ حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة، وعلة المولود له رزقهن وكسوتهن .. بالمعروف ... وعلى الوارث مثل ذلك﴾ [البقرة: 233].

﴿إما يبلغن عندك الكبر – أحدهما أو كلاهما – فلا تقل لهما أفٍ، ولا تنهرهما، وقل لهما قولاً كريماً .. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة .. وقل ربِ ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾ [الإسراء: 23 – 24].

﴿ولا تقتلوا أولادكم﴾ [الأنعام: 151].

﴿وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾ [الإسراء: 31].

«وإنه لولدك عليك حقاً» [متفق عليه عن عبد الله بن عمرو].

﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الـجُنُب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم﴾ [النساء: 36].

روى الشيخان « عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: سألت النبي ﷺ: أيّ العمل أحب إلى الله تعالى؟، قال: الصلاة على وقتها، قلت ثم أيُّ، قال: بر الوالدين، قلت ثم أي، قال: الجهاد في سبيل الله ».

وفي الحديث المتفق عليه « عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! من أحق بحسن الصحبة؟ قال: أمك ثم أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك أدناك ».

ويتعلّق بهذا الأمر موضوع الرحم والعلاقة بين ذوي القربى ولقد منّ الله على الإنسان أن: خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً، والإسلام يجعل لهذه الصلة صلة الرحم منزلة عظمى لأنها الرابطة الأساسية في بناء الأسرة بمفهومها الأوسع، ولأنها عامل أساسي في التمكين للثقافة الإسلامية الواحدة التي تنشئ الحضارة الإسلامية المباركة، يقول الله سبحانه:

﴿ولكلٍ جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون﴾ [النساء: 33].

﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ [الأنفال: 75]، [الأحزاب: 6].

﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾ [النساء: 24].

وفي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة ﷺ: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ».

وليس يخفى أن هذه الرابطة تتخذ في الإسلام شكلاً ليس معروفاً عند أحد!

فأولو القربى هؤلاء لهم حق في أن يرثوا من قريبهم .. وعليهم في مقابل ذلك أن يتكافلوا ويتضامنوا في دفع ديّة القتل الخطأ إذا قام بها أي قريب لهم وهو لا يدفع شيئاً .. وهذا وحده مثال على هذه الواجبات المتبادلة بين ذي القربى.

﴿وآتِ ذي القربى حقه﴾ [الإسراء: 26]، [الروم: 38].

ولكننا نرى فوق ذلك كيف يبلوِّر الإسلام معنى الواجب في حياة المسلم!، فالواجب ليس منّة يتكرَّم بها الإنسان!، وليس كما يقولون « رفع عتب » .. محاولة يقوم بها المرء باذلاً جهداً بسيطاً وهو يتمنى أن تُرفع عنه ..

الواجب على النقيض من ذلك مَكرمة .. وهو في الوقت نفسه مدعاة لأن يتحمله الإنسان إلى آخر حدوده.

روى البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: « ليس الواصل (أي واصل الرحم) بالمكافئ (أي الذي يصل رحمه إن وُصلت) ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمُه وصلها! »

فهو قيام بالواجب لا ينتظر أن يسبقه أداء حق من الطرف الآخر ! ليس هكذا فقط من حيث الشروط .. وإنما كذلك من حيث الاستمرار:

روى مسلم « عن أبي هريرة ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لي قرابةً أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ وأحلم عنهم ويجهلون عليّ ! فقال: لئن كنت كما قلت فكأنما تُسفُّهم المَلّ (أي الرماد الحار) ولا يزال معك من الله ظهيراً عليهم ! »

ومادمنا في معرض الحديث عن الأسرة فلنتعرّض إلى العلاقات بي الزوجين، تلك التي يقيمها الإسلام على أساس أنه من حق كلٍ منهما على الآخر أن يعاشره بالمعروف ويخلص له ويسكن إليه. ولكن الخطاب لا يكون بهذا الشكل وإنما يكون بشكل توجيه لكلٍ منهما إلى واجبه تجاه الآخر لا إلى حقه على الآخر:

فالخطاب للأزواج:

﴿وعاشروهنّ بالمعروف ..﴾ [النساء: 19].

﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ! فلا تميلوا كل الميل !﴾ [النساء: 129].

اللهم إني أُحرّج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة [حديث حسن رواه النسائي بإسناد جيد عن خويلد بن عمر الخزاعي ﷺ].

استوصوا بالنساء خيراً [متفق عليه عن أبي هريرة، والترمذي عن عمرو بن الأحوص ﷺ وقال حسن صحيح].

لا يفرُك مؤمن مؤمنة: إن كره منها خلقاً رضي منها آخر [رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ].

أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم [الترمذي عن أبي هريرة وقال حسن صحيح].

إن لزوجك عليك حقاً [متفق عليه عن عبد الله بن عمرو].

والخطاب للزوجات:

﴿فالصالحات قانتاتٌ حافظاتٌ للغيب بما حفظ الله﴾ [النساء: 34].

المرأة راعية على بيت زوجها وولده [متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما].

أيما امرأة ماتت وزجها عنها راضٍ دخلت الجنة [الترمذي عن أم سلمة رضي الله عنها، حديث حسن].

وفي معرض العلاقات الاجتماعية مثال آخر:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلّموا على أهلها﴾ [النور: 27].

﴿فإذا دخلتم بيوتاً فسلّموا على أنفسكم تحيةً من عند الله مباركة طيبة﴾ [النور: 61].

وفي مقابل ذلك:

﴿وإذا حيّيتم بتحية فحيّوا بأحسن منها أو رُدّوها﴾ [النساء: 86].

ويضرب لنا المثل الأطيب في التعامل بين النبي وبين الملائكة:

﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا: سلاماً قال: سلام﴾ [الذاريات: 24].

روى الشيخان عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: « أمرنا رسول الله ﷺ بسبع: بعيادة المريض، واتّباع الجنائز، وتشميت العاطس، ونصر الضعيف وعون المظلوم، وإفشاء السلام، وإبراء المقسم ».

ولنرى كيف فهم أصحاب رسول الله ﷺ هذا الواجب:

« عن الطفيل بن أبي كعب أنه كان يأتي عبد الله بن عمر فيغدو معه إلى السوق. قال: فإذا غدونا إلى السوق لم يمرّ عبد الله على سقّاط (بياع السَقَط) ولا صاحب بيعة ولا مسكين ولا أحد إلا سلّم عليه ! قال الطفيل: فجئت عبد الله بن عمر يوماً فاستتبعني إلى السوق فقلت له: ما تصنع بالسوق ؟ وأنت لا تقف على البيع، ولا تسأل عن السلع، ولا تسوم بها، ولا تجلس في مجالس السوق ؟ فأقول: اجلس بنا هاهنا نتحدّث .. فقال: يا أبا بطن – وكان الطفيل ذا بطن – إنّما نغدو من أجل السلام: نسلِّم على من لقيناه ! » [رواه مالك في الموطأ بإسناد صحيح].

وفي موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقام جليل .. فهو واجب على الفرد أن يقوم به تلقاء الجماعة، وهو في الوقت نفسه واجب على الجماعة تلقاء الفرد .. وهو في هذا وذاك دليل

على وعي الأمة ويقظتها ليس عليه مزيد .. وتلك ميزة من مزايا الأمة الأخيرة وصفة تلازمها لا تفارقها قط، وهي عامل أساسي في الولاية والترابط والتناصر بين المؤمنين:

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض: يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ [التوبة: 71].

﴿ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ [آل عمران: 104].

﴿كنتم خير أمّة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾ [آل عمران: 10].

روى مسلم عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان.

وروى البخاري عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم. فقالوا: لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا .. فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا .. ونجوا جميعاً!»

وروى الترمذي عن حذيفة ﷺ عن انبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لتأمُرنّ بالمعروف ولتنهوّ عن المنكر أو ليوشكَنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يُستجاب لكم» [حديث حسن].

والصلات بين المملوك والمالك .. يوم كان لا يزال في المجتمع مملوكون:

واجب المالكين:

﴿والذين يبتغون الكتاب لما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم منهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾ [النور:].

وروى الشيخان عن أبي ذر ﷺ أن النبي ﷺ قال له: « هم إخوانكم ..... جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم ».

وفي مقابل ذلك:

« المملوك الذي يحسن عبادة ربه، ويؤدي إلى سيده الذي عليه: من الحق والنصيحة والطاعة له أجران » [البخاري عن أبي موسى الأشعري ﷺ].

« ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه (آمن بمحمد)، والعبد المملوك الذي أدّى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت له أمة فأدّبها وأحسن تأديبها وعلّمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران » [متفق عليه عن أبي موسى].

وضمانة أخرى من ضمانات السلامة للمجتمع نجدها في حفظ كرامة أبنائه وصون سمعتهم عن أن ينالها سوء، وتلك كأولئك واجب من واجبات الفرد وواجب من واجبات المجتمع على سواء:

واجب من واجبات الفرد:

﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾ [الحجرات: 12].

« أتدون ما الغيبة، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول، قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه » [رواه مسلم عن أبي هريرة].

وعن أبي بكر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال في خطبة يوم النحر بمِنى في حجّة الوداع: « إن دماءكم وأموالكم **وأعراضكم** حرامٌ عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا **! ألا هل بلّغت ؟!** » [متفق عليه].

وروى مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « كل المسلم على المسلم حرام: دمه **وعرضه** وماله ».

وواجب من واجبات المجتمع:

﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة﴾ [النور: 19].

﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً﴾ [النور: 4].

﴿لولا إذ سمعتموه ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين﴾ [النور: 12].

﴿ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ [النور: 16].

« من ردّ عن عرض أخيه ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة » [الترمذي – حسن – عن أبي الدرداء].

ولا ننسى أن نذكر العلاقات المهمة بين الحاكمين والمحكومين.

فالحكم في الإسلام واجب ليس حقاً، ولذلك كان الإسلام يشمئز ويستفظع فكرة الإنسان الباحث عن الوظيفة كما يخبرنا القلقشندي (صبح الأعشى ج 1 صـ 240): « ولقد أُثر عن أبي بكر أنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن هذا الأمر فقال لي: يا أبا بكر **!** هو لمن يرغب عنه لا لمن يجاحش عليه، ولمن يتضاءل عنه لا لمن يتنضّح إليه .. هو لمن يقال له: هو لك، لا لمن يقول: هُوَ لي **!!** »

فما هو واجب ولاة الأمر وما هو واجب المحكومين؟

ذلك أمر نستشفه من الآيات والأحاديث التالية:

﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى﴾ [النحل: 90].

« الإمام راعٍ ومسؤولٌ عن رعيته » [متفق عليه عن ابن عمر].

« ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاشٌّ لرعية إلا حرّم الله عليه الجنة » [متفق عليه عن معقل بن يسار].

وفي رواية لمسلم: « ما من أمير يلي أمور المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح لهم إلا لم يدخل معهم الجنة ».

« خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلّون عليهم ويصلّون عليكم » [مسلم عن عوف بن مالك].

« إن المقسطين عند الله على منابر من نور: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما دُلُّوا » [مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص].

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ [النساء: 59].

« على المرء المسلم الأمر والطاعة فيما أحبّ وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة! » [متفق عليه عن ابن عمر].

« عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك » [مسلم عن أبي هريرة].

« الدين النصيحة! قلنا: لمن قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامّتهم » [مسلم عن تميم بن أوس الداري].

﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ [الشورى: 38].

« عن علي ﷺ قال: قلت يا رسول الله ! الأمر ينزل بنا بعدك لم ينزل فيه قرآن ولم يُسمع فيه منك شيء ؟! قال: اجمعوا العابد من أمتي واجعلوه بينهم شورى ولا تقضوا برأي واحد » [الخطيب البغدادي في روح المعاني].

﴿وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكَّل على الله﴾ [آل عمران: 159].

ويروي ابن كثير عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه عندما سأل النبي ﷺ عن مضمون كلمة « العزم » الواردة في الآية أجاب قائلاً مشاورة أهل الرأي ثم اتباعهم.

« من أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره فقد خانه » [أبو داوود].

والإسلام يعتبر من واجب المسلم أن يستنفذ جهده في سبيل إعلاء دين الله وفي سبيل أن يكون عزيزاً كريماً، ويوجب عليه أن يبذل كل ما في وسعه ولا يعتذر بكل سطحية وبكل بساطة بأنه من المستضعفين ..:

﴿إن الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا: كنا مستضعفين في الأرض ! قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً .. إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً .. فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً .. ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ..﴾ [النساء: 97 – 100].

ولكنه في الوقت نفسه يعتبر من واجب المجتمع المسلم كله أن يحارب من أجل هؤلاء المستضعفين الحقيقيين من الرجال والنساء والولدان:

﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾ [النساء: 75].

ولو ذهبنا نستقصي الأمثلة العديدة في أصول الشريعة، لطال بنا الأمر كثيراً، ولكن علينا قبل أن ننتهي من هذا الاستشهاد أن نعالج موضوعاً من الأهمية بمكان ..

فلقد جاء الإسلام، وفي جزيرة العرب مجتمع فقير ضائع، وفيها في الوقت نفسه عدد قليل من الأغنياء والمترفين. فلم يأتِ الإسلام إلى هؤلاء الفقراء فيقل لهم خذوا حقكم من أموال الأغنياء، ولكنه خاطب هؤلاء وهؤلاء بنداء الواجب!

﴿فأما من أعطى واتقى وصدَّق بالحسنى فسنيسِّره لليسرى﴾ [الليل: 5 – 7].

﴿وسيجنّبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكّى﴾ [الليل: 17 – 21].

﴿آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ [الحديد: 7].

﴿وأنفقوا خيراً لأنفسكم﴾ [التغابن: 16].

﴿وآتِ ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل﴾ [الإسراء: 26، الروم: 38].

﴿وفي أموالهم حقٌ للسائل والمحروم﴾ [الذاريات: 19].

﴿والذين في أموالهم حقٌ معلوم للسائل والمحروم﴾ [المعارج: 24 – 25].

﴿خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم وتزكيهم بها﴾ [:].

« على كل مسلم صدقة » [متفق عليه عن أبي موسى].

« فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم » [متفق عليه عن معاذ].

وفي مقابل ذلك:

« لأن يأتي أحدكم أحبلة ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » [البخاري عن الزبير بن العوّام].

« لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خيرٌ له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه » [متفق عليه عن أبي هريرة].

« ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يدِه وإن نبي الله داوود ﷺ كان يأكل من عمل يده » [البخاري عن المقداد بن معد يكرب].

وبذلك كله بنى المجتمع الذي يقوم على الإيثار وأداء الواجب، والذي يجبل كل أفراده على نفسية العطاء ..

ونفسية العطاء هذه قد أصرّ النبي ﷺ عليها في أكثر من موضع وقد روى جمهور من الصحابة عن النبي ﷺ في مناسبات مختلفة قوله:

« اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى »

وهو أوجز تعبير عن نفسية العطاء .. رواه البخاري عن أبي هريرة والشيخان عن حكيم بن حزام في أكثر من موضع وعن ابن عمر ومسلم ..... بن عجلان.

﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ [الحشر: 9].

﴿ويُطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾ [: 8].

« عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ إذ جاء رجل على راحلة له فجعل يصرف بصره يميناً وشمالاً فقال رسول الله ﷺ: من كان معه فضل ظهر (أي مركوب فاضل عن حاجته) فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له، فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل » [رواه مسلم].

« إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو قلّ طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسويّة فهم منّي وأنا منهم » [متفق عليه عن أبي موسى].

والرسول ﷺ يقول في حديث طويل: « فمن أحب أن يُزحزح عن النار ويُدخَل الجنة فلتأته منيته وهو مؤمن بالله واليوم

الآخر، وليأتِ إلى الناس الذي يحب أن يُؤتى إليه » [مسلم عن عبد الله بن عمر].

هذه قبسات موجزات من هدي القرآن والنبوّة، أحببت أن أستعرضها على عجل، لأوضِّح كيف أن هذا الأمر أمر النهوض بالواجب ينتظم حياة الفرد المسلم والمجتمع المسلم في كل جزئية من جزئياته .. والإسلام إذ يفعل ذلك يطوّر المجتمع الجاهلي المتخلِّف تطويراً هادئاً هادفاً بنّاءً إلى مجتمع نيّر متحضر .. ولا يسلك سبيل الثورة الرعناء التي تطيح في سبيل الوصول إلى أهدافها بأشياء لا عداد لها، من جملتها كيان الفرد وكيان المجتمع على السواء.

وذلك كله دستور خالد دائم وضعه الله لحياة الأمم، وهو وحده السبيل إلى بناء مجتمعنا المسلم من جديد لأنه: « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها »والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.